الفلسفة

أول ما يقع فى النفس من متابعة الأطوار الدينية — كما أوجزناها كل الإيجاز فيما تقدم — أن مهمة الدين هى مهمة النوع الإنسانى كله ، قد تلمس فيها السبيل القويم من أقصى عصور ماضيه إلى حاضره الذى نحن فيه ، وأنه كلما ترقى بتفكيره وترقى بأخلاقه وأحواله تهيأ لقبول عقيدة التوحيد ، وترقى فى هذا الاتجاه من تنزيه إلى تنزيه ، ومن كمال إلى كمال .

وتتجلى هذه المظاهرة فى الأديان القديمة التى أتمت نضجها و بلغت مستقرها فى زمانها واستكملت من قبل جميع شعائرها . كالديانة المجوسية التى أسلفنا تلخيصها كما اعتقدها أهل قبل الميلاد و بعده بقليل ، فإن أبناءها قد أخذوا بعقيدة التوحيد بعد احتكاكهم بالمسلمين وأصبح المجوس الذين يسمون اليوم بالپارسيين يؤمنون بإله واحد : هو إله الخير يزدان ولا يشركون معه أهرمن كما فعل أسلافهم الأقدمون . قال العلامة جيمس دارمستتر Darmesteter فى كلامه على زرادشت من كتاب حوادث العالم الكبرى : « إنهم قد انتهوا إلى الوحدانية ، و إن الدكتور ويلسون حين كان مشغولا بمناقشة الپارسيين منذ أربعين سنة — نعت دينهم بالتنوية فأنكر مجادلوه هذه التهمة ، وقالوا إن أهرمن لم يكن له وجود حقيقى وإنما هو رمز لما يجيش بنفس الإنسان من خواطر السوء . فلم يعسر على الدكتور أن يبدى لهم أنهم يناقضون بذلك كتبهم المقدسة . ولم يزل النقاد الأوربيون حيناً بعد حين يعجبون للتقدم الذى تقدمه الپارسيون فى المذهب العقلى بعد مدرسة ڤولتير وجيبون . ولكن الواقع أنه ليس للمذاهب الأوربية تأثير وراء هذا التقدم . فإن الپارسيين قبل أن يسمعوا بأوربة المسيحية وُجد فيهم من فسر أسطورة تامورات الذى امتطى أهرمن ثلاثين سنة كما يمتطى الحصان — بأنها تعنى أن ذلك الملك قد كبح شهواته وزجر نوازع الشر التى تحيك بسريرة الإنسان . وشاع فيهم هذا التفسير المثالى نحو القرن الخامس عشر للميلاد ولا يزال شائعاً اليوم بين المفسرين .

وليس فى الوسع أن نقرر على التحقيق مبلغ تأثير الديانة الإسلامية فى هذا التحول فقد نلمح هنالك علامات ضعيفة على ابتدائه منذ عهد المجوس الأقدمين. . . »

ولابد أن نلاحظ هنا أن المهم هو تهيؤ الذهن للتوحيد ، وليس المهم هو ما قصده الإنسان فى نيته وعمله فعلا فى هذا السبيل .

فلا الحقائق الدينية ولا الحقائق العلمية يقدح فيها ما قصده العقل أو قصدته النوازع النفسية قبل الوصول إليها .

فإن الإنسان قصد تسيير السفن وتنظيم الملاحة فعرف الفلك ورصد ظواهر السماء ، وقصد قياس المزارع فعرف الهندسة ، وقصد الذهب فعرف الكيمياء ، وقصد الشعوذة فعرف الطب ، وبدأ بالفلسفة من بداءات أعجب من بداءات الأديان ، ولم يحسب ذلك عيباً على الحقائق التى انتهى إليها من هذا السبيل .

فالمهم فى الأطوار الدينية هو الحافز الدائم الذى لزم النوع الإنسانى من أقدم عصوره ، وهو الوجهة القويمة التى يسعى إليها ويقترب منها ، ولا تزال بداهة الفطرة سابقة فيها لأشواط العقل فى مضمار الفلسفة والتفكير . وهذه هى معجزة الجهود الدينية عند الالتفات إليها وانعدام النظر فيها ، فإن عقول الفلاسفة أقدر على التأمل من بداهة الجماعات ، ولكن الذى رأيناه فى تاريخ الفلسفة قديماً وحديثاً أنها أخذت من بداهة الجماعات آساسها المتينة ولم ترتفع إلى ذروة أعلى من التى ترقى إليها الضمير بعقيدة التوحيد والتنزيه ، ولا نفهم هذا عقلا إلا على اعتبار واحد ، وهو أن هداية الله تأخذ بيد الإنسان خطوة فخطوة فى هذا المرتقى الوعر . فيهتدى فى كل مرحلة من مراحلها بمقدار .

لقد آمن الإنسان بالإله الواحد من طريق العقيدة قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون ، ولكنه لم يعرف « السبب الأول » من طريق الفلسفة حوالى القرن الرابع قبل الميلاد . وكان جل اعتماده فى ذلك على الدين .

فمن الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عن الروح ، ومن الدين تلقوا فكرتهم عن بطلان الظواهر المادية ، ومنه تعلموا التفرقة بين العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون فى تصفية كنه الموجودات إلى أعماق لا تغوص

فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار .

وقد استعاروا من الأديان الأولى عقائد المؤمنين بها فى تعليل أصول الكائنات والتنبؤ عن مصيرها بعد وفاء آجالها من الوجود . فقالوا إن السماء والأرض خلقتا من الماء ، وقالوا بالدورات الكونية التى تبدئ العالم وتعيده كرة أخرى على طويل الأدهار والآباد ، وقالوا بالحساب والعقاب كما قال سابقوهم من المتدينين ، وفهموا أن قدرة الله تخالف قدرة القوى المادية التى تعمل بالجهد والعناء . . . فتعلموا أن الله يخلق بالكلمة أو بالمشيئة فيفعل ما يريد . وأخذوا من الديانات القديمة صوابها وخطأها وحقائقها وأوهامها ، ثم محصوها ومحضوها فلم يجاوزوا بالتمحيص والتمحيض آفاق الإيمان بوحدانية الله .

وإننا لنحسب أن الاهتداء إلى القوة الروحية أو قوة العقل هو أعلى ما ارتفع إليه فكر الإنسان وضميره ، بإلهام الدين وبحث الفلسفة والعلوم . . . فليست القوة كثافة ولا مادة مجسمة للعينين واليدين . وإن القوة المادية نفسها حين تدخل فى حساب العقل لهى أقرب إلى أن تقاس بالأرقام والتقديرات من أن تقاس بالثقل والضخامة . بل الثقل نفسه ليس هو إلا معنى من المعانى نسميه بالجاذبية ونقيسه بالتقديرات الرياضية .

ولهذا نستكبر على البادئين بهذه الفكرة المنزهة قبل عشرات القرون أنهم وثبوا إليها وثبة واحدة وقصدوا بها ما نقصده اليوم حين نتكلم فى الفلسفة تارة ونتكلم فى العلوم الطبيعية تارة أخرى .

ونتخذ من هذه الفكرة مثالا للأساليب الإنسانية فى الوصول إلى حقائق الأشياء ، ودليلا على القاعدة التى نقررها لوزن الأطوار الدينية بميزانها الصحيح ، وهى أن العبرة بالوجهة التى نبلغها لا بالدواعى التى تحركنا إلى تلك الوجهة ، وإن قصد الإنسان لا يعبر تمام التعبير عن قصد القضاء الذى يسيره ويغريه بالعمل والاجتهاد . فنحن نرجح أن العقل الذى خطر له أن الله يخلق بكلمة ولا يخلق بجهد من جهود الحركة المادية — قد استعار هذه الفكرة السامية من شىء رآه لا من شىء بحثه واستقصاه .

وأقرب هذه الأشياء المرئية إليه هى قدرة الساحر على التأثير بكلمة يقولها والسيطرة على الأجسام والأجرام الضخام بالهمهمة والتعزيم، وهى ضرب من الكلام.

والله أقدر من الساحر . فإذا قدر الساحر أن يحرك الصخور بكلمة ويكسر السلاح بكلمة ، ويقتل العدو الشجاع بكلمة ، فأولى بالخالق الأعظم أن يملك هذه القدرة ويملك ما هو أعظم منها وأدل على المضاء ونفاذ المشيئة ، فلا جرم يشاء فيكون ما يشاء .

فلما جاءت الفلسفة وتناولت هذه الفكرة الكبرى لم تصل إلى شوط أبعد من شوطها ولكنها وصلت إلى بداءة أقوم من بداءتها . فكان مثلها فى هذا كمثل من وجد الكنز ورسم الدروب التى تتأدى إليه . وكان مثل الأسبقين كمثل من عثر بالكنز فوقع فيه . وبقى الكنز بجوهره ونفاسته لمن يسلك إليه منهجه القويم .

وسنرى للفلسفة — كما رأينا للعقيدة — بدايات كثيرة كهذه البداية وتوفيقات كثيرة كهذا التوفيق .

بل سنرى أن بداية الفلسفة نفسها لم تخل من توفيق بيّن لا يد فيه لتدبير ذويه .

* * *

فقد كان للتوفيق يدٌ ملحوظة فى زمان الفلسفة ومكانها . فبدأت حوالى القرن السادس قبل الميلاد فى العصر الذى بلغت فيه الديانات القديمة أقصى آمادها من تصور الفكرة الإلهية والعقيدة الروحية ، وكان ذلك العصر هو عصر النضج والتمام فى الديانة الإسرائيلية ، وهى آخر الحلقات فى السلسلة القديمة وأولى الحلقات فى سلسلة جديدة من ديانات الوحى والأنبياء، أو الديانات الكتابية .

أما مكان الفلسفة اليونانية فهو رقعة من الأرض على اتصال بأبناء كل دين قديم من تخوم الهند إلى ضفاف النيل ، وزاد اتصالها بتلك الأمم زحوف الفاتحين وجموع المهاجرين ، تارة من الشرق إلى الغرب وتارة من الغرب إلى الشرق . . . فكان اليونان فى آسيا الصغرى يعرفون عبادات المجوس والبابليين والمصريين واليهود وكان روادهم ورحالوهم يتنقلون بين الأقطار فيعرفون فيها ما لا يعرف فى بلادهم من الخفايا والأسرار . وساعدهم الحظ فخلت بلادهم من الكهانات الراسخة

التى تستأثر بالتفكير فى مسائل الكون ومسائل العقيدة . لأن الكهانات الراسخة إنما تقوم على العروش العريقة على أودية الأنهار الكبار . . كمصر والعراق وبعض الأقاليم الهندية ، ولم يكن فى أرض يونان كلها نهر تتأثل عليه دولة شامخة وكهانة مستقرة . فطرقوا أبواب الفكر أحراراً غير محجمين عن معضلة معقدة ولا منقادين لإمامة متحكمة . فاختاروا فيما أخذوه واختاروا فيما نبذوه ، وتزودوا من رسالة الإيمان لرسالة البحث فى الحكمة والعلوم .

وهم — على إعفائهم من سلطان الهياكل العريفة — لم تخل فلسفة لهم قط من فكرة دينية فى أساسها أو فى مضامينها ، ولا استثناء فى ذلك لأكبرهم وأقدرهم ، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو . فإن طلاقة أرسطو فى مباحثه العلمية والفلسفية لم تخرجه من سلطان الفكرة الدينية فى القول بالهيولى والحركة الأولى . فلولا الإيمان بالخالق والمخلوق والروح والجسد لما خلص أرسطو إلى الصورة والمادة والتفرقة بين العقل والهيولى .

وأول المشهورين من فلاسفة اليونان طاليس المليطى الملقب بأبى الحكماء . كان يقول كما قالت الأديان من قبله إن الماء أصل كل شىء ، وإن الروح تحرك المادة ، فما من متحرك إلا وهو ذو روح أو منقاد لذى روح . ولا يستطيع المغناطيس مثلا أن يجذب الحديد إلا بروح فيه .

ويظن شارحوه أنه قال بأصالة الماء لأنه رأى النطفة سائلة ورأى النبات الرطب يدخل الجسم فينقلب فيه إلى حرارة حيوانية ، ووهم أن الأرض سابحة على الماء ، وأن الشمس تخرج منه وتعود إليه . فإذا غلظ فهو أرض وإذا رق فهو بخار أو نار أو هواء .

والعالم على زعمه مملوء بالأرباب ، وهى التى تحرك فيه كل متحرك من الحى والجماد .

وجاء بعده أنكسماندر — ولعله أكبر الحكماء من هذا الطراز — فقال إن الأشياء كلها تخرج من مادة أولية ولكنها ليست الماء ولا النار ولا الهواء ولا التراب لأن الماء لو كان أصلا لهذه العناصر لغلب عليها وطردها ، وكذلك التراب

والهواء والنار ، فهى إذن سواء كلها فى الانتساب إلى أصل أقدم منها . وهى تتزاوج وتمازج ويود كل عنصر منها أن يجور على حصة غيره فى الوجود . فإذا خرج بها الشطط عن سواء الاعتدال عادت كلها إلى معدنها الأول وزالت الفوارق بين الأجسام والأحياء لتعود إلى الوجود من جديد ، وهكذا دواليك فى حركة دائمة لا انقطاع لها منذ القدم إلى غير نهاية . فهى على هذا دورات كونية كالدورات التى قال بها الهنود واليونان .

ويقول أنكسماندر بالتطهير والتكفير فى دورات الخلق المتعاقبة كما يقول بهما الهنود . . . « فإلى المعدن الذى خرجت منه الأشياء تعود كرة أخرى كما قضى عليها ، تكفيراً وترضية عن جور بعضها على بعض ، وفقاً لقضاء الزمن » .

وهو يقول بخروج الإنسان الأول من الماء وطين البحر ، ولكنه يستبعد خروجه دفعة واحدة لأنه فى طفولته ضعيف غير مستغن عن الحضانة والكفالة ، وكان الأقدمون يزعمون أن سمك « القرش » يقذف جنينه من فيه ثم لا يزال يبتلعه ويقذفه فى كل مرة أكبر مما قبلها حتى يبلغ أشده . فيرسله فى الماء ولا يعود إلى ابتلاعه . . . فخطر لأنكسماندر أن الإنسان الأول ربما خرج من جوف حيوان آخر على هذه الوتيرة ، ولا يبعد أنه استعار هذا الخاطر من أساطير أهل بابل وما يروونه عن « الإنسان » المائى الذى يتألف من نصف إنسان ونصف حوت .

وظاهر من قول أنكسماندر أن مسألة الخلق عنده هى مسألة تحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة ، وليست مسألة إنشاء أو إحداث بعد عدم . وأن المادة الأولية التى تئول إليها جميع الموجودات هى كذلك مصدر الأرباب وأنصاف الأرباب ، ومصدر المحركات والمتحركات ، ولا مهرب لرب أو مربوب من الفناء آخر الأمر فى معدنها الأصيل ، وهذا بعينه هو مذهب الهنود كما قدمناه .

ولم يزد أناكسمين — تلميذ أنكسماندر — شيئاً يذكر عن أقوال أستاذه فى باب المعرفة الإلهية . وإن كانت له تخمينات قيمة فى الجاذبية والذرات

وتعريفات الحركة ، وقد ختمت به مدرسة مليطية ، ومات فى الربع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد .

* * *

وكأنما كانت مدرسة مليطية نفخة فى بوق مسموع فى طليعة جند الحكمة ، ولا سيما الحكمة الإلهية . فإن آسيا الصغرى وما حولها أنجبت فى الجيل التالى لجيل طاليس وزملائه طائفة من أعظم الفلاسفة أثراً فى مذاهب الحكمة الإلهية ، ومن هذه الطائفة أكسينوفان وهيرقليطس وفيثاغورث وديمقريطس وأنكسغوراس.

ورسالة أكسينوفان الكبرى تنحصر فى إنحائه الشديد على كل تشبيه أو تمثيل توصف به الأرباب . لأن حقيقة الإله عنده من وراء خيال الإنسان ، وإنما يتخيل الإنسان أربابه على هيئته ويعزو إليها أخلاقاً كأخلاقه وأعمالا كأعماله . ولو كان للحصان يد تحسن التصوير وسئل أن يصور إلهه لصوره حصاناً مثله ، ولو تخيل الأثيوبى ربه لتخيله أسود أفطس على مثله ، وهيهات للعقل البشرى أن ينفذ إلى الحقيقة الإلهية أو يقاربها بعض المقاربة . فكل ما قيل عنها وما سيقال قد يكون فيه الصواب أو بعض الصواب . ولكنها مصادفة يجهلها القائل ولا يقيسها السامع بقياس معلوم .

أما هيرقليطس فلعله أعظم هؤلاء الأربعة أو أعظم فلاسفة آسيا الصغرى على الإطلاق .

ويرجح أن هيرقليطس اتصل ببعض الآراميين أو ببعض اليهود . لأن الآراميين الذين تهودوا كان من عادتهم — كما يتبين من ترجمتهم للتوراة المعروفة بالترجوميم — أن يذكروا كلمة الله «ممرا» "Memra" والحضور «شكينة» من السكن أو مكان الحضور . . . وينسبون إليها أعمال الله فى مقام الإشارة والتعظيم . فيقولون حضرة الله كما يقولون كلمة الله وهم يعنون الإله ويؤثرون الإشارة إليه تعظيماً له عن الذكر الصريح . ومثل هذا شائع إلى اليوم فى اللغات الشرقية التى تذكر الحضرة وتعنى صاحب الحضرة وتذكر الأمر والكلمة وتعنى صاحب الأمر والكلمة . . . فكلمة الله على هذا المعنى ترادف أمر الله أو مشيئة الله عند الآراميين واليهود .

وكان هيرقليطس يقول إن الكلمة "Logos" هى مساك الوجود كله ، وإنها هى النظام الذى يحيط به ويتغلغل فيه ، وإنها لا تصنع إلا الصالح من الأمور « فعند الله كل شىء جميل وخير . ولكن الناس هم الذين يعتبرون بعض الأمور من الخير وبعضها من الشر » .

وتكاد الكلمة عنده أن تكون مرادفة لمعنى الله . فهى النظام الذى يضع كل شىء فى موضعه . وكذلك الله : « هو النهار والليل والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والشبع والجوع ، ويتخذ الأشكال والمظاهر على اختلاف . كالنار وهى تمتزج بالأبازير فيسمى كل منها باسمه لا باسم النار » .

والاختلاف هو أساس الانسجام والنظام. فلولا النقائض لما كان النغم المنسجم ، ولولا التعدد لما كانت الوحدة : « فكل شىء يأتى من الأحد ، والأحد يأتى من كل شىء... ولكن الكثرة دون الوحدة فى الوجود الحقيقى ، وذلك هو الله » .

لكن هيرقليطس لا يقول بالخالق ولا بحاجة الموجودات إلى موجود . « فهذه الدنيا التى هى سواء للجميع لم يخلقها أحد من الآلهة ولا من الناس ، ولكنها كانت منذ الأزل وتكون الآن وتظل كائنة فى كل زمان ، ناراً خالدة تتقد بحساب وتنطفئ بحساب » .

فالنار هى أصل العناصر وهى المصدر الأول لجميع الكائنات ، وهى حركة دائمة لا انقطاع لها فى لحظة من اللحظات . فأنت لا ترى الشىء الواحد غير مرة واحدة ولا ترى شمساً واحدة كل صباح . . . أو أنت على تعبيره لا تنزل النهر مرتين لأن أمواجه تطرد ولا تبقى كما لمستها فى المرة الأولى . وهذا الجيشان الدائم يستخرج من كل شىء ضده وتتم الألفة بين الأضداد المتقابلة بميزان العدل الذى لا يغفل ولا ينى عن تسوية المقادير وزيادة الناقص ونقص الزائد . وهذا الرأى فى الأضداد وتناسقها شأنه فى مذاهب الفلسفة الحديثة ، لأنه رائد الثنائية التى قال بها « هيجل » واشتق منها كارل ماركس مذهبه المشهور فى الثنائية المادية .

وهيرقليطس كما تقدم يقول باستغناء الموجودات عن الموجود ولكنه يقول

بحاجتها إلى العدل الإلهى الذى لا قوام لها بغيره . ويتكلم عن الله كلامه عن «ذات» مدبرة مريدة ومن ذلك قوله : « إن الله لاشك مساك للعدل فى الكون كله » و « إن أعمال الإنسان خلو من العقل، ولكن أعمال الله لا تخلو منه . . . وما الإنسان إلا كالطفل بالقياس إلى الله . . . وأعقل الناس كالنسناس بالنسبة إلى الإله ، وهو إذا قورن بالإله كان دميماً شائهاً كما يشوه أجمل القردة إذا قرن بالإنسان . . . »

وقد ولد فيثاغورس فى جزيرة « ساموس » على مقربة من آسيا الصغرى . وكان مذهبه نسخة يونانية من الديانة الهندية . فهو يقول بتناسخ الأرواح وبطلان المادة وتجدد الدورات الكونية ، ولا يرى حقيقة غير الحقيقة الإلهية المنبثة فى الكون كله ، ويفهم من كلامه أنه يقول بوحدة الوجود كما يقول بالحلول أى حلول الروح الإلهية فى الإنسان حتى يصبح أكثر من إنسان وأقل من إله . كما قال : « هناك أرباب وأناسى ، وكائنات مثل فيثاغوراس » وأقدم الكائنات عنده أربعة هى : الأب والصمت والعقل والحق ، ومن الأولين صدر الاثنان الآخران .

وهو يوصى بالحيوان ويحرم أكل لحمه . ويعتقد أن جسد الحيوان قد يشتمل على روح إنسان يتطهر بالتناسخ حتى يكفر عن آثامه فيلحق بالرفيق الأعلى ، وتعفى روحه من عقوبة الرجعة إلى الأجساد .

وليست النار ولا عنصر من العناصر التى حصرها القدماء فى النار والتراب والهواء والماء أصلا للموجودات . ولكن العدد هو أصل كل موجود لأنه يلازم الوجود ولا ينفصل عنه كما قد ينفصل عنه اللون أو الثقل أو الحجم أو الكثافة المحسوسة . فالنسب العددية هى مناط الاختلاف بين جميع الأشياء ، وهذا الرأى — على ما يبدو من سخفه — هو أقرب إلى الصواب من آراء الفلاسفة الآخرين . . . لأنه يتعزز بالكشوف العلمية عن المادة وسبب الاختلاف بين عناصرها وردها جميعاً إلى حركات تمايز بالنسب العددية فى الخلايا والذرات ، وكان ديمقريطس يقول مثل قوله فى تركيب الأشياء من العدد ، ولكنه يخالفه

فى المادة ويعنى بالعدد عدد الذرات الصغيرة التى تتركب منها جميع الموجودات ومنها الأرباب .

ويأتى أنكسغوراس بعد فيثاغوراس فى الزمن والمكانة بين حكماء آسيا الصغرى... وهو الذى عمم كلام هيرقليطس عن الكلمة "Logos" وسماها "Nous" أى العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد ، وأنه هو مصدر حركة دوارة تدفع ما خف إلى أعلى الكون وتهبط بما سفل إلى مركزه . وما من شيء إلا وفيه أضداد حتى أصغر الذرات التى لا ترى بالعين . إلا العقل فإنه منزه عن التعدد والتناقض وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم . ولا فرق بين العقل فى الإنسان وفى الحيوان وفى الجماد إلا بالأداة التى يستخدمها ، ولولا تفاوت الأجساد فى إتقان الأداة لما اختلفت عقول البشر وعقول الحيوانات وعقول الحجارة الصماء .

والأثر الأكبر الذى يذكر لهذا الفيلسوف أنه كان أول من نقل الفلسفة من آسيا الصغرى إلى أثينا فى أيام بركليس . وكانت أثينا قبل ذلك تنكر للمباحث الفلسفية وتتهم من يبحثون فيها وينقطعون عن الشعائر الدينية ، ولم يسلم أنكسغوراس من تعصب أهلها لأنهم سنوا قانوناً يعاقب كل من يتعرض للأشياء « التى فى العلا » ويهجر عبادة الأرباب الأولمبية وما جرى مجراها ، واتهموه بالكفر لأنه كان يقول بأن الشمس صخر محمى وأن القمر كالأرض من تراب ؛ ولولا بركليس لما نجا من مصير كمصير سقراط بعده بقليل .

وقبل أن ننتقل إلى المدرسة الأثينية الكبرى — وهى مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو — نلم بمدارس ثلاث من مدارس الفلسفة التى كانت لها عناية خاصة — أو كان لها شأن خاص — بمسائل العقيدة الدينية ، وهى مدرسة إيطاليا الجنوبية ومدرسة الرواقيين ومدرسة أبيقور ، وبعض فلاسفة هذه المدارس لاحق للمدرسة الأثينية فى الزمان.

ويرجع نشاط المدرسة الإيطالية أيضاً إلى مدارس آسيا الصغرى ، لأن فيثاغوراس وأكسينوفان هما صاحبا الفضل الأكبر فى تنبيه الأذهان إلى مباحث الفلسفة فى إيليا وصقلية بعد هجرتهما من وطنهما الأول . وقد نبغ هنالك كثير

من أصحاب الآراء الفلسفية أجدرهم بالذكر فى هذا المقام ثلاثة : هم پارمنيد وزينون وأمبدوقليس ، لأنهم يمثلون كل ناحية من نواحى التفكير فى مدارس إيطاليا الجنوبية .

ولباب مذهب پارمنيد أنه لا وجود لغير الواحد . وإن كل وجود غيره وكل ما نراه من التعدد والتغير إنما هو وهم الحس وخداع الظواهر . . . فلا تغيير ولا أضداد كما يقول هيرقليطس . وإنما هى حالة واحدة نراها على درجات ونحسبها لذلك من قبيل الأضداد . فالبرد قلة فى درجة الحرارة والظلام قلة فى درجة الإضاءة والمرض قلة فى درجة الصحة . وقس على ذلك جميع الأضداد من هذا القبيل .

قال مدللا على بطلان التغيير : «كيف يتأتى أن الشىء الذى هو كائن يفقد الكينونة ؟ وكيف يتأتى أن يكون بعد أن لم يكن ؟ فإذا حدث هذا الشىء فلا بد قبل حدوثه من زمن لم يكن فيه . وكذلك يقال إذا كان حدوثه سيبدأ فى المستقبل . . . وأين تبحث عن أصل الشىء الذى هو كائن ؟ وكيف ومتى يحدث نماؤه ؟ لا أرى لك أن تقول إنه يأتى من لا شىء فإن اللاشىء لا يقبل التعبير ولا يقبل التفكير

وما هى يا ترى تلك الضرورة التى توجده فى زمن من الأزمان دون سائر الأزمان ؟ كذلك يمنعك النظر الثاقب أن تصدق أن الشىء الذى هو كائن يموت إلى جانبه كائن آخر » .

ومعنى هذا أنه لا شىء يأتى من لا شىء . فالعالم قديم لم يحدث . والواحد الذى يؤمن به پارمنيد ليس خالقاً للكون بل هو حقيقة الكون . ويقول فى وصفه إنه كرة محيطة لا تقبل التجزئة ، لأن كلها حاضر فى كل جزء منها .

ويعتبر زينون الإيلى أبرع المدافعين عن مذهب أستاذه پارمنيد . فإنه أبدع تلك النقائض التى رد بها على أنصار هيرقليطس وفيثاغوراس حين أنكروا الوحدة وسخروا من مذهب پارمنيد بتلفيق الأحاجى والأماثيل . فأبدع لهم تلك النقائض البارعة التى تثبت بها الإحالة والخلف على القائلين بالتغير والكثرة .

ونجتزئ منها ببعض الأمثلة للدلالة على طريقة هذه المدرسة فى إثبات الوحدة الكونية ونفى التعديد والتغيير .

قال ما فحواه : إن الشىء الكثير إذا كانت كثرته بالامتداد فهو قابل للقسمة إلى شطرين . وكل شطر منهما قابل للقسمة إلى شطرين . وهكذا إلى غير نهاية ، وهو مستحيل ؛ لأن المحدود لا يقبل القسمة بغير حدود . أما إذا قلنا إن الجزء الذى تنتهى إليه لا يقبل القسمة فهو مستحيل أيضاً . لأنه ذو امتداد ، وكل ذى امتداد ينقسم إلى نصفين .

ويقال فى الكثرة بالعدد ما يقال فى الكثرة بالامتداد . فإن الأعداد منفصل بعضها عن بعض . وبين كل منفصلين تقبل القسمة . ولا تزال تقبلها على النحو الذى تقدم فى كثرة الامتداد .

وهو يبطل الحركة لأن التغيير إنما يقوم عليها ، ويبدع لذلك نقيضه من قبيل نقائض الكثرة فيقول : إن الحركة لا تنتهى إلى غايتها إلا إذا قطعت نصف المسافة ثم نصف النصف إلى غير نهاية . ومن التناقض أن يقال إن حركة تنتهى بلا نهاية . . . ويضرب مثلا آخر بالمسابقة بين عداء وسلحفاة فيقول : إذا سبقت السلحفاة العداء بأقصر مسافة فإن العداء لا يلحق بالسلحفاة إلا إذا عبر المسافة التى بينهما . وفى هذه الأثناء تكون السلحفاة قد سبقته إلى مسافة أخرى لا بد له من عبورها ، وهكذا إلى غير انتهاء ، وهو محال .

وأكثر هذه النقائض من قبيل المغالطات ، لأنه يعتبر فيها الزمان ولا يعتبر المكان أو يعتبر فيها المكان ولا يعتبر الزمان . ولكن كلامه عن الجزء الذى لا يتجزأ ينطوى على معنى صحيح يدل على ضلال الحس فى تصور المادة والفضاء ، ولعل أفضل الحلول لهذه المناقضة هو حل الأفلاطونيين الذين قالوا إن الجسم يتجزأ إلى أن يتمحق فيصير هيولى . . . أى مادة أولية ، والمادة الأولية هى الذرة المنحلة .

ولم يأت زينون الإيلى فى باب الإلهيات برأى يزيد على رأى أستاذه ، فهو يؤمن بالواحد الذى لا يتعدد . ولا يجعله إلها خالقاً منشئاً للعالم من العدم ، لأنه

لا يؤمن بالتغيير ولا بحدوث شيء من لا شيء !

أما أمبدوقليس فهو أقرب الفلاسفة إلى زمرة الشعراء ، وكان ينظم فلسفته ويعتمد فيها على الخيال . فقد تخيل العالم كرة وقال إن الحب هو إله العالم والنزاع عدوه الراصد له على الدوام . وكان الحب بداءة فى داخل الكرة والنزاع خارجها فكان الناس يعبدون أفروديت ربة الحب وحدها ويتجنبون التقرب إليها بالذبائح وسفك الدماء ، ثم تطرق النزاع إلى داخل الكرة وخرج الحب منها ولا يزالان كذلك حتى يتغلب النزاع على الحب فتتمزق أوصال الوجود وتنتهى دورة من دورات الأبد ويبدأ الخلق من جديد .

وكان أمبدوقليس يدّعى الحلول ويزعم أنه مشتمل على روح إله ، ويروى تلاميذه معجزات له تحسب من خوارق العادات ، ويلتمسون منه البركة والرضوان كأنه من القديسين .

وأبقى ما بقى من آرائه فى الإلهيات والطبيعيات أن الله « حب » وأن العناصر أربعة : وهى النار والتراب والهواء والماء ، وكان السابقون له يذكرونها عرضاً ولكنهم لا يعتبرونها مبادئ المادة على سبيل التحديد .

* * *

أما المدرسة الرواقية فقد أوشكت أن تكون نحلة دينية ، لأنها امتازت بعلم كعلم اللاهوت فى المسيحية أو علم الكلام فى الإسلام ، وهى لاحقة لمدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو فى تاريخ الظهور ، ولكننا نفردها على حدة قبل الكتابة عن المدرسة الأثينية ، لأنها نمط مستقل فى مباحث الفلسفة على الإجمال ، وبينها وبين المدرسة الأثينية فرق واضح فى الطبيعة والموضوع .

وأشهر فلاسفتها المستجمعين لنواحى التفكير فيها ثلاثة : هم زينون وكليانتاس وشريسبس ، وكلهم متقاربون فى تاريخ الميلاد .

فزينون ولد سنة ٣٣٦ قبل الميلاد فى قبرص وعاش وعلم فى أثينا ، وخلاصة رأيه أن الموجود هو الفاعل أو المنفعل ، وأن أصل الموجودات كلها النار وأصل النار الهيولى . . . والله هو العقل الفاعل والهيولى هى المادة المنفعلة ، ولكنه لا يؤمن

بوجود لشيء غير مادى . فالله عنده « أثير » لطيف ، وروى عنه جالينوس أنه يعارض أفلاطون لأن أفلاطون كان يرى أن الله جوهر منزه عن المادة الجسدية، وزينون يقول إنه جوهر ذو مادة Soma وأن الكون كله هو قوام جوهر الإله ، وأن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ،وأن الناموس Nomos وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthos logos أو الكلمة الحقة — هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى الكواكب والأيام صفة إلهية، ويعتقد أن الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها ، فتعود كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم . كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام.

ويترادف عنده معنى الله والعقل ،والقدر وزيوس ، فكلهما وما شابههما من الأسماء تدل على وجود واحد ، وقد كان هذا الوجود الواحد منفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء ، وأصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق أو كلمة الخلق Spermatikos logos كما تجرى مادة التوليد من الأحياء، فبرزت منها مبادئ الأشياء وهى النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادئ على التدريج .

وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التى تحرك الهيولى ، وهى قوة عاقلة . . لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه، ولا شيء أعظم من الكون cosmos .. فهو عاقل لأنه عظيم .

ويفسر زينون تعدد الآلهة فى معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات إن هى إلا رموز مجازية على حقيقة واقعية . فلما قال الأقدمون إن أورانوس إله السماء خصاه ابنه كرونوس إله زحل — كانوا يفهمون من ذلك أن كوكب زحل هو مناط النظام فى السيارات وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك وتقسيم الفصول والسنين. ومن هنا التشابه بين كلمة Kronos كرونوس إله زحل وكلمة كرونوس Chronos أى إله الزمان ، كأنهم يقولون إن الزمن قد

حد من حركات الأفلاك والسيارات .

ولكن زينون على بلوغه هذه المنزلة من التوحيد وإنكار التشبيهات لم يخلص من اللوثة المادية فى تصور الله ولا فى تصور الروح . فالروح عنده هى جوهر غازى حار ، وهى مركبة من النفس (سيكى Psyche) بمعنى التنفس ومن العقل Varros وهو من عنصر الأثير ، ومن نقائض المذهب الرواقى أنه يأبى إقامة الهياكل لله مع هذه المادية فيه ، لأنها أقل من أن تبلغ مرتقاه .

ولا ينكر زينون كهانة الكهان . بل يقول إنها لازمة عقلا . لأنه لا غنى عن الكهانة مع وجود العناية التى تتكفل بالسبق إلى التقدير والهداية .

وقد ولد كليانتس Cleanthes بعد زينون بسنوات . لأنه ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق . م . وكان مولده بآسيا الصغرى .

ورأيه أن الله روح يسرى فى جميع أجزاء الكون ، وأن الروح الإنسانية قبس من ذلك الروح وأن الشمس هى مناط النظام فى الكون ، لأنها تنشئ الليل والنهار وتقلب الفصول والسنين .

وهو يقول بالدورات الكونية كما يقول زينون . فمن النار تبدأ جميع الأشياء وإلى النار تعود .

وقد كان إمام اللاهوتيين بين فلاسفة الرواقيين ، لأنه أول من أسهب فى إقامة الأدلة على وجود الله ، ومن براهينه اللاهوتية أن اختلاف المزايا والطبائع يستدعى تمييز بعضها على بعض ، وأن يكون بعضها أفضل من الجميع . . فالحصان مثلا أفضل من السلحفاة ، والثور أفضل من الحمار ، والأسد أفضل من الثور ، وليس على الأرض ما هو أفضل من الإنسان . ولكنه مع ذلك لا يرتقى إلى المنزلة الفضلى ولا يسلم من الضعف والشر والحماقة . فليس هو مثال الكمال بين الموجودات ، ولابد أن يكون الموجود الحى الكامل شيئاً غير الإنسان ، وأن يكون موجوداً مستكملا للفضائل منزها عن كل سوء . ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله. فالإله إذن موجود .

ومن أسباب الإيمان بالله عند كليانتس أربعة أسباب يخصها بالتنويه :

وهى الوحى الذى يكشف الغيب ، وعظمة الخيرات التى تجود بها الأرض والسماء ، ورهبة النفس أمام أسرار الوجود وظواهره الرائعة كالبروق والرعود والعواصف والأهوال والأوبئة والصواعق والبراكين ، وهذا النظام المحكم الذى يبدو للنظر فى حركات الأجرام السماوية ومواعيد الأفلاك والبروج ، مما يرفض العقل حدوثه بالمصادفة والاتفاق .

وكانت لهذا الفيلسوف صلوات يخاطب بها الله كأحسن ما تكون الصلاة ، ولكنه يذكر الله باسم زيوس كما كان معروفاً بين الإغريق .

* * *

وولد شريسبس Chrisppus ثالث هؤلاء الفلاسفة بعد كليانتس بنحو خمسين سنة ، وكان مولده فى قليقية ومقر تعليمه فى أثينا ، وهو أوفرهم محصولا وإن لم يحفظ من كتبه غير شذرات .

وقد شغل باللاهوت الرواقى كما شغل به كليانتس ، ولا سيما براهين وجود الله وبراهين عدله وحكمته فى قضائه .

فمن براهينه على وجود الله أن الكون أكبر من أن يخلق للإنسان وحده . فوجوده عبث إن لم يكن هناك إله أكبر من الإنسان .

ومن تلك البراهين أنه « إذا كان هناك شىء يعجز الإنسان عن صنعه فالذى يصنع ذلك الشىء أعظم من الإنسان . وإن الإنسان يعجز عن خلق الكون فلا بد أن يكون القادر على خلقه أعظم منه . وأى موجود أعظم من الإنسان غير الله ؟ » .

ويرد على من يتخذون الشر دليلا على بطلان العناية الإلهية بأدلة كثيرة يقول منها فى كتابه عن العناية : « إنه ليس أفضل من أولئك الذين يتخيلون أن الخير قابل للوجود بغير وجود الشر معه . لأن الخير والشر ضدان يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر . . . فكيف يتأتى لمحسن معنى من المعانى بغير الأخطاء والإساءات ؟ وما هو العدل إن لم يكن هو منع الظلم ؟ وماذا يفهم إنسان من معنى الشجاعة إلا أنها نقيض الجبن ؟ وما من معنى للعفة إلا أنها نقيض الشراهة ؟ وأين يجلى

الحكمة إن لم تكن هناك حماقة ؟ وما بال هؤلاء القوم فى حماقتهم يطلبون أن يكون هناك حق ولا يكون هناك باطل ؟ وقل مثل ذلك فى الخير والشر والراحة والتعب والسرور والألم . فإن هذه الأشياء آخذٌ بعضها برقاب بعض كما قال أفلاطون . فإن نزعت إحداها نزع معها قرينه لا محالة » .

ويعلل الفيلسوف بعض الآلام بأنها عقوبة من الله ، أو أخذٌ من الجزء لإعطاء الكل ، وحرمان للفرد لإغداق الخير على المجموع ، ويقول إن زيوس المخلّص المنعم مصدر العدل والنظام والسلام يتنزه عن فعل ما لا يحسن ولا يجوز ، ولكنه يصنع فى الكون كما تصنع الدولة التى تضيق بسكانها . . فتبعث بفريق منهم إلى المستعمرات النائية أو إلى ميادين القتال .

ويجيز شريسبس وجود آلهة تتمثل فى القوى الكونية دون الإله الأعظم زيوس . ولكنه يعتبرها من أهل الفناء ولا يعفيها من قضاء القيامة التى تشمل الموجودات فى نهاية كل دورة كونية ، فإن هذه الدورات تأتى على كل موجود غير الإله الباقى وهو مصدر النار ومعيدها إلى التركيب ليستخرج منها أجزاء كون جديد .

* * *

وتأتى مدرسة أبيقور (٣٤٢ — ٢٧٠) فى الموضع الوسط بين مدرسة الرواقيين ومدرسة أثينا الكبرى : ونعنى منها على الخصوص مذهب أرسطو الذى اشتهر بمذهب المشائين .

فكان أبيقور وتلاميذه يعظمون الآلهة كتعظيم الرواقيين ، وينسبون الإله والروح إلى مادة لطيفة كالأثير أو أرق من الأثير ، ولكنهم يخالفون الرواقيين فى الإيمان بالقيامة الإلهية ويقولون إن الآلهة فى رفيقها الأعلى سعيدة خالدة ، وإن السعيد الخالد لا يكرث نفسه بأمره ولا بأمر غيره ، ولكنهم يقيمون فوق الكون metakosmia فى نعيم وفرح صاف مقيم ، لا يعرفون تعباً ولا يتعبون أحداً ، وإنما تجرى الأمور عفو السجية بغير تقدير ولا حاجة إلى التقدير .

وهناك مدرسة أخرى غير مدرسة أبيقور ومدرسة زينون لها شأنها فى التفكير . ولكن لا شأن لها فى العقيدة . . لأنها لا تنقض فيها ولا تبرم ، وهى مدرسة

الشكوكيين أو اللاأدريين ، فلا موضع لها فى المقام .

* * *

هذه المذاهب كلها كان لها تأثير ملحوظ فى تفكير المفكرين بعدها فى المسائل الإلهية ، فما من مذهب منها إلا وقد أعقب فكرةً قام عليها رأى فيلسوف متأخر أو دخلت فى رأيه على نحو من الأنحاء .

إلا أن الإجماع متفق على أن المدرسة الأثينية — مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو — هى أعظم مدارس الفلسفة بين الإغريق على التعميم . سواء منها ما نشأ قبل الميلاد وما نشأ بعده ، وسواء منها ما نشأ فى آسيا الصغرى أو إيطاليا الجنوبية أو مدينة الإسكندرية .

وليس هذا التمييز مرتبطاً بضخامة الأثر فى المسائل الإلهية ، لأن فلسفة الرواقيين وفلسفة فيثاغوراس لا تقل أثراً فى هذه المسائل عن مذاهب الفلسفة الأثينية . ولكنما ارتبط هذا التمييز « أولاً » بعظمة الفلاسفة أنفسهم لأنهم كانوا على اليقين أعظم فلاسفة اليونان قدراً وأرجحهم عقلاً وأبرزهم عبقرية فى شئون البحث والدراسة والحكمة على تعدد جوانبها ، وارتبط هذا التمييز ثانياً بمقياس المنطق الذى خلفوه واصطلح المفكرون بعدهم على الاحتكام إليه فى إقامة الحجة وفصل الحدود وتمحيص التعريفات . فاعتمد عليه أقطاب اللاهوت كما اعتمد عليه أقطاب العلم والفلسفة ، ولم يزل إلى هذه الأيام مرجعاً معولاً عليه لمن يقبله على علاته ومن يتناوله ببعض التنقيح والتعقيب .

ورأس هذه المدرسة هو سقراط (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م) أستاذ أفلاطون ، وأسبق القائلين فى القدم بردّ العقيدة والعبادة إلى الضمير .

وقد كان سقراط من أصحاب الهواتف الخفية ، وكان يستمع إلى هاتف يخيل إليه أنه يلازمه ويوحى إليه وينفخ فى روعه بما يلهمه الرشد والصواب .

ولكنه لم ينصرف إلى مباحث ما وراء الطبيعة كانصرافه إلى مباحث الأخلاق والسياسة وقواعد المعرفة والثقافة النفسية . فكان قصارى ما أثر عنه من الآراء فى مسائل العقيدة أنه يؤمن بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت ،

وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب ، وكان يتكلم عن الآلهة تارة وعن الإله تارة أخرى . إلا أنه ينزهها جميعاً عن تلك الخلائق البشرية التى تعزى إليها فى قصص الرواة وأساطير الشعراء ، ويؤمن برعايتها للبشر وعكوفها على الخير والسعادة ، وينعى على الذين يحسبون العبادة قائمة على القرابين والضحايا وذبائح الماشية ، ولا يرى لإنسان عبادة مقبولة إذا خلا من خلوص النية وصفاء الضمير .

ولعله قد أسس قواعد البحث والمنطق بتعويده تلاميذه أن يستخلصوا الحدود والتعريفات من المشاهدات والمحسوسات ، وأن يجعلوا هذه الحدود أساساً للقياس وترتيب النتائج من المقدمات .

ولا شك أن هذه الحدود قد وجهت المفكرين بعده إلى الفصل بين خصائص الأشياء ومقوماتها ، وكان أرسطو يتوخاها فى تقسيماته المنطقية وتطبيقاته الفلسفية ، وبها أقام ذلك السد الحائل بين جميع خصائص العقل وجميع خصائص المادة الأولية أو الهيولى . فكان وضع الحد عنده أهم من تقرير الجوامع والمقاربات .

* * *

وخلفه تلميذه أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) فتبعه فى مباحث الأخلاق والسياسة والثقافة النفسية ، وتبع فيثاغوراس فى العقائد الروحية ومزج الفلسفة بالرياضة والدين .

ولو لم يكن أفلاطون وثنىّ البيئة لكان أرفع الإلهيين تنزيهاً للوحدانية . ولكن البيئة الوثنية غلبته على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات ، فأدخل فى عقيدته أرباباً وأنصاف أرباب لا محل لها فى ديانات التوحيد ، ولا سيما عند الفلاسفة الموحدين .

فالوجود فى مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان : طبقة العقل المطلق وطبقة المادة الأولية أو الهيولى « Hyle »

والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من الهيولى .

وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولى .

وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب وبعضها أنصاف أرباب وبعضها نفوس بشرية . وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ليعلل بها ما فى العالم من شر ونقص وألم . فإن العقل المطلق كمالٌ لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة . فهذه الأرباب الوسطى هى التى تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر والهيولى العاجزة . . . فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين .

وكل هذه المظاهر المادية بطلان وخداع . لأنها تتغير وتتلوى وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال .

وإنما الصمود والدوام للعقل المجرد دون غيره . وفى العقل المجرد تستقر الموجودات « الصحائح » أو المثل كما سميت فى الكتب العربية ، وهى كالعقل المجرد خالدة دائمة لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد .

هذه الصحائح هى المثل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة أو الهيولى . فكل شجرة — مثلاً — فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية . فأين هى الشجرة التى لا نقص فيها ؟ هى فى عقل الله منذ القدم . وكل ما تلبس بالمادة من خصائص الشجرية فهو محاكاة لذلك المثل الأعلى .

وبقاء هذه الموجودات هو أيضاً محاكاة لبقاء الله .

فبقاء الله بقاء أبدى لا أول له ولا آخر ولا تحول فيه ولا تقلب ، ولا تعرض له الزيادة ولا النقصان .

أما بقاء هذه الموجودات فهو بقاء فى الزمان . والزمان مخلوق من حركة الأفلاك . فهو مقياس لبقاء المخلوقات وليس بمقياس لبقاء الخالق . وإنما شاء الله بجوده ورحمته أن يعطى الموجودات نصيبها من البقاء فأعطاها الزمان ، وهو محاكاة للأبد السرمدى الذى لا ابتداء له ولا انتهاء . كما أن الموجودات المحسوسة محاكاة للموجودات المثالية التى يعقلها الله وتخرجها أنصاف الأرباب إلى حيز الوجود . فتنقص لأن أنصاف الأرباب لا تعقلها كما يعقلها الله ، ولأن التلبس بالمادة يحيطها بالحدود وينضح عليها من عوامل الفساد .

والعقل البشرى يعلو فيدرك الحقائق المجردة ، ويهبط فيدرك المحسوسات بالتجربة والمشاهدة ، ومن أمثلة الحقائق التى تدرك بغير تجربة حسية حقائق الرياضة العليا . فإن الله مهندس ، وأحكامه هى الهندسة القائمة على نسب الأعداد المجردة ، ومعرفتها معرفة عقلية يدركها الإنسان بصفاء القريحة ، وربما كانت هذه النسب أو الأعداد مرادفة للمثل العليا أو للصحائح فى فلسفة أفلاطون ، ولا سيما ما ذكره عنها فى أيامه الأخيرة ، ورجع به إلى فيثاغوراس .

وقد رجع أفلاطون إلى فيثاغوراس فى القول بتناسخ الأرواح وتجدد الآجال على حسب الحسنات والسيئات .

فالنفس البشرية إذا استلهمت القدرة من العقل الإلهى تغلبت على عجز المادة والجسد وصعدت إلى معدنها الأول ، فخلصت إلى عالم البقاء الذى لا يشوبه فساد . . . ولكنها إذا رزحت بثقل المادة واستسلمت لعجزها ونسيت قدرتها على مكافحتها هبطت من جسد إلى جسد أحقر منه وأدنى . فكانت فى جسم حيوان بعد أن كانت فى جسم إنسان ، وانحدرت من حيوان كريم إلى حشرة لئيمة ، حتى تفيق من غشيتها وتستأنف فى عالم العقل المجرد سيرتها الأولى .

فالهيولى مقاومة للعقل المجرد وليست موجدة بمشيئته من العدم . ولعل أفلاطون لم يحاول أن يردها إلى العدم ، أو يقول بوجودها من العدم ، لأنها كانت حقيقة واقعة فى رأى سابقيه من فلاسفة اليونان ولأنها ساعدته على تعليل النقص والشر والألم ... فوقف بها بين الكمال المطلق الذى ينبغى للإله الأعظم ، وبين عوارض القصور التى تقترن بغيره من الموجودات .

* * *

وقام بعد أفلاطون تلميذه العظيم « أرسطو » فتوسع فيما بعد الطبيعة توسعاً لم يسبق إليه بين فلاسفة الأوائل ، ووضع للجدل معياره الذى سمى بعد ذلك بعلم المنطق ، وفصل بين الحدود فبالغ أحياناً فى الفصل بينها ، ولكنه أقام القواعد الأولى على أساس صحيح .

والله عند أرسطو هو العلة الأولى أو المحرك الأول .

فلا بد لهذه المتحركات من محرك ، ولا بد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه ، وهكذا حتى ينتهى العقل إلى محرك بذاته ، أو محرك لا يتحرك . لأن العقل لا يقبل التسلسل فى الماضى إلى غير نهاية .

وهذا المحرك الذى لا يتحرك لا بد أن يكون سرمداً لا أول له ولا آخر ، وأن يكون كاملا منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد ، وأن يكون مستغنياً بوجوده عن كل موجود .

وهذا المحرك الأول سابق للعالم فى وجوده سَبْقَ العلة لا سبق الزمان . كما تسبق المقدمات نتائجها فى العقل ولكنها لا تسبقها فى الترتيب الزمنى . لأن الزمان حركة العالم ، فهو لا يسبقه . أو كما قال « لا يُخلق العالم فى زمان » .

وعلى هذا يقول أرسطو بقدم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب اليقين . إلا أنه يقرر فى كتاب « الجدل » أن قدم العالم مسألة لا تثبت بالبرهان .

وإجمال براهينه فى هذه القضية أن إحداث العالم يستلزم تغييراً فى إرادة الله والله منزه عن الغيرَ . فهو إذا أحدث العالم فإنما يحدثه ليبقى جل جلاله كما كان ، أو يحدثه لما هو أفضل ، أو يحدثه لما هو مفضول ، وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو فى حق الله . فإذا حدث العالم وبقى الله كما كان فذاك عبث والله منزه عن العبث ، وإذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان فلا محل للزيادة على كماله ، وإذا أحدثه ليصبح مفضولا فذلك نقص يتنزه عنه الكمال .

وإذا كانت إرادة الله قديمة لا تتغير — فوجود العالم ينبغى أن يكون قديماً كإرادة الله ، لأن إرادة الله هى علة وجود العالم . وليست هذه العلة مفتقرةً إلى سبب خارج عنها ، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته ، أولتأخر الموجودات عن سببها الذى لا سبب لها غيره .

فالإنسان يجوز أن يريد اليوم شيئاً ثم يتأخر إنجازه ، لنقص الوسيلة أو لعارض طارئ أو لعدول عن الإرادة . وكل ذلك ممتنع فى حق الله .

وقد أفرط أرسطو فى هذا القياس حتى قال إن الله جل وعلا لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها .

وإنما يعقل الله أفضل المعقولات ، وليس أفضل من ذاته . فهو يعقل ذاته ، وهو هو العاقل والعقل والمعقول . وذلك أفضل ما يكون .

والعقل بالنسبة إلى الله يخالف العقل بالنسبة إلى غيره من الموجودات الفانية ، فإن الإنسان يعقل الجزئيات بعد وقوعها ثم يعقل الكليات بعد استقصاء الجزئيات ، ويلزمه ذلك لأنه يعلم بعد جهل ويتوقف علمه على المعلوم . وليس علم الله متوقفاً على ما عداه .

وكل صفة من صفات الله فهى تتعلق به ولا تتعلق بغيره ، وهى قائمة به ولا تقوم على غيره ، ومن هذه الصفات الإرادة والعلم كما تقدم ، ومنها الكرم والرحمة والخير والعدل والحكمة وسائر صفات الكمال .

فالله لا يريد العالم لأنه لا يحتاج إليه .

ولكن العالم يريد الله ، لأنه متوقف عليه .

ويسأل السائل : إذن كيف يكون هذا التوقف إن لم يكن بعمل من أعمال المشيئة الإلهية فى الجملة والتفصيل ؟

وجواب أرسطو عن هذا السؤال أنه يكون بسعى الناقص إلى طلب الكمال ، أو بسعى الموجودات إلى التشبه بعلتها الأولى . فالله أعطاها العقل ، والعقل يبعث فيها الشوق إلى مصدرها الأول . فتتحرك وتعلو بالحركة ، أو تكسب فى كل حركة صورة أرفع من صورتها ، وحظاً من الكمال أرفع من حظها ، تقرباً إلى الصورة التى لا تشوبها شائبة من عجز المادة أو الهيولى . . . وهى الصورة السرمدية الكاملة : صورة الله .

* * *

ولا يُفهم معنى هذا الارتفاع إلا إذا فُهم معنى الصورة فى مذهب أرسطو.

فالصورة فى مذهبه هى حقيقة الشىء وماهيته التى يقوم بها وجوده ، وليست هى شكله البادى للعين أو تمثاله الملموس باليدين .

فصورة العصفور هى حقيقته التى يكون بها عصفوراً ، ولا يكون غير ذلك من الطيور أو الأحياء على العموم .

وصورة الدرهم هي جوهره الذى يميزه من سائر قطع الفضة وسائر قطع النقد ويجعله درهماً وتزول عنه « الدرهمية » إذا زال .

ولا يخلو موجود فى العالم من الصورة .

فكل موجود فهو صورة ومادة أو « هيولى » .

وتترقى الموجودات فى شرف الوجود كلما عظم نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الهيولى .

فالموجودات الخسيسة يوشك أن تكون هيولى محضاً خالية من كل صورة . فلا فرق بين جزء وجزء ولا بين فرد وآخر من الجنس نفسه .

وكلما ارتقت فى سلم الوجود زاد نصيبها من الصورة المميزة وقل نصيبها من الهيولى المتشابهة . وربما أصبحت صورة جسم مادة لجسم آخر . كالورق الذى هو صورة مميزة لبعض الموجودات وهو فى الوقت نفسه مادة للكتاب .

وأعلى الموجودات على هذا القياس هو الله ، لأنه صورة محض لا تشوبه المادة ، ومعنى مجرد لا يقوم فى جسد .

وأخس الموجودات جميعاً هى الهيولى ، وهى لم توجد قط منعزلة عن صورة من الصور ، وإذا وجدت منعزلة عن الصورة فهى وجود بالقوة أى وجود لم يتحقق بالفعل ولا يزال فى انتظار التحقيق .

والحركة هى التى تحققه .

والحركة هى التى ترتقى به من صورة إلى صورة .

ولما كان الله هو المحرك الأول كما تقدم فهو موجد العالم على هذا الاعتبار ، وهو قبلته التى يرتقى إليها . . . شوقاً إلى مصدره منها .

وهذه هى الصلة كلها بين الله والعالم : فلا يُنسب إلى الله فى مذهب أرسطو أنه يهتم بالعالم أو يفكر فيه ، لأنه تفكير فيما دونه أو تفكير لا يليق بكماله . ولا يعقل الله جل وعلا إلا أشرف معقول ، وهو ذاته دون سواها .

وهذا هو الخطأ الذى جاء من الغلو فى مذهب أرسطو : تناوله الحكماء الدينيون فلم ينكروا المقدمات ولكنهم أنكروا النتيجة التى تأدى إليها أرسطو من

مقدماته . فقالوا : إن الله لا يعقل إلا أشرف معقول . نعم لا جدال فى ذلك . . . ولكن أشرف معقول هو المعقول الذى يتحقق به كمال صفاته من القدرة والعلم والرحمة والجود . وإنما يتحقق جوده بإيجاد المخلوقات ، ويتحقق علمه بنفى الجهل بها ، وتتحقق رحمته برعايتها وتهذيبها . أما كيف يكون ذلك فالبحث فيه هو علة الخطأ فى جميع تلك الفروض والأقيسة . لأنه سبحانه وتعالى جل عن الشبيه ، فليس كمثله شىء ، وليست أعمالنا كأعماله على فرض من الفروض .

ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد الموت ، فالروح من عالم العقل ، والعقل واحد فى جميع الأفراد ، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدركات العقلية . فلا اختلاف بين إنسانين فى إدراك الحقائق المجردة كالرياضة والمنطق وما جرى مجراها ، ومؤدّى هذا عند أرسطو أن العقل المجرد لا فردية فيه ، وأن الروح تعود إلى العقل العام بعد فراقها للجسد . فلا فردية لها بعد الموت ، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء .

* * *

ذلك أوجز تلخيص مستطاع لمذاهب المدرسة الأثينية فى الحكمة الإلهية . وقد توخينا فيه ما يكفى لتقدير خطوتها فى هذه المرحلة الإنسانية الخالدة ، فليس يدخل فى موضوع هذا الكتاب تلخيص آرائها فى غير فكرة الإيمان بالله .

ولعلنا نقدر هذه الخطوة حق قدرها إذا قلنا إن المدرسة الأثينية عرضت على الفهم ما أخذته من إيمان الأولين . فنقلت البناء من أساس الإيمان إلى أساس البحث والقياس ، وإن موقفها من المادة كان كموقف التسليم « بالأمر الواقع » كما يقولون فى لغة السياسة . لأنها لم تقل بقدم العالم إنكاراً لوجود العقل المستقل كما أنكره الماديون فى العصور التالية ، ولكنها قالت بقدم العالم رأياً لأنها وجدته ماثلا أمامها حسًّا ، فلم تستطع أن تقاوم الحس فى الماضى كما لم تستطع أن تقاومه فى الحال .

المسيحية

لما ولد السيد المسيح عليه السلام — والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات — كان كل ما فى الشرق ينبئ برسالة مرتقبة واعتقاد جديد .

كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامس للخليقة ، وهو عندهم مبدأ التقويم . لأن الاعتقاد العام كما قدمنا فى تاريخ فارس وما بين النهرين كان يتجه إلى انتظار الخلاص فى مطلع كل ألف سنة على يد رسول من السماء .

فجاش الأردن وما حوله بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغتسل المشهور بالمعمدان. وراح هذا النبى يدعوهم إلى التوبة والاغتسال من الذنوب ، ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر فى بحر الأردن على يديه، ويبشرهم أو ينذرهم بقرب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء . وهو الملكوت الموعود منذ قرون .

وكان اليهود قد فهموا « ملكوت الله » على معنى غير الذى فهموه وتوارثوه من أيام السبى وزوال مملكة داود وسليمان .

فقد كانوا ينتظرون ملكاً « مسيحاً » من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء .

وكانوا يترقبون رجعة الدولة على يد فاتح ظافر من أبناء داود يجرد الكتائب ويجتاح القلاع والدساكر ، ويقمع أعداءهم بالنار والحديد .

وتجدد رجاؤهم فى مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء وذهاب دولة البابليين والمصريين . فلما تطاول الزمن ووقعت بلادهم فى قبضة الدولة الرومانية — وهى فى قوتها وعجز اليهود عن مقاومتها لا تقل عن الدولتين الذاهبتين — يئسوا من الخلاص على أيدى الفاتحين الظافرين وتحولوا إلى الرجاء فى قيام مسيح غير مسحاء العروش والتيجان . فترقبوه مسيحاً فى عالم الروح ،

وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير .

وكان أنبياؤهم قد بشروا بذلك المسيح قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، فإذا هم يتدرجون من وصفه بالقوة والبأس إلى وصفه بالرحمة والحنان ، ويتمثلونه وديعاً رضيًّا يتجافى صهوات الخيل ويمتطى فى موكبه حماراً ابن أتان .

هذا نطاق الديانة الإسرائيلية .

أما فى نطاق البحث والحكمة فإن الفلسفة كانت فى ذلك العصر قد أوفت على غايتها ، وأطلعت أعظم أعلامها وأكبر مدارسها . وشاعت فى البلاد الفينيقية على الخصوص . . . لأن هذه البلاد كانت منشأ الرواقيين السابقين وكانت على اتصال دائم بآسيا الصغرى من جهة وبالإسكندرية من جهة أخرى ، وهى يومئذ قبلة الفلاسفة والحكماء .

ومن هؤلاء الفلاسفة من بشر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة — ويعنى بها العقل الإلهى — هى مبعث كل حركة ومصدر كل وجود .

ومنهم من قال إن الحب هو أصل جميع الموجودات ومسالك جميع الأكوان ، ومنهم من وعظ بالنسك والعفة وأوصى بالشفقة على الإنسان والحيوان وحرم ذبحه وزعم له روحاً كانت تعقل فى حين مضى وستعود إلى العقل بعد حين .

وليس أدل على تهيؤ الجو للرسالة الجديدة من التمهيد لها فى نطاق الفلسفة ونطاق الديانة فى وقت واحد .

فكانت دعوة « يوحنا المعمدان » تقابلها دعوة فيلون الفيلسوف الإلهى الذى ولد بالإسكندرية قبل مولد السيد المسيح بنحو عشرين سنة ، وكان فيلون يجمع حكمة العصر من جميع أطرافها ، لأنه كان يهوديًّا محيطاً بثقافة قومه وفيلسوفاً محيطاً بمذاهب الفلسفة اليونانية ، ووطنيًّا مصريًّا محيطاً بالحكمة الدينية التى نبعت من معين التاريخ المصرى القديم وامتزجت بالعقائد السرية الأخرى فى بلاد الرومان واليونان وآسيا الصغرى ، وأهمها عقيدة إيزيس وعقيدة أوزيريس سرابيس التى تأسست بالإسكندرية وتفرعت فى أثينا وپومى وروما وبعض الموانئ

الآسيوية ، وكانت لهذه الديانة مراسم خفية يترقى فيها المريد على أيدى الكهان والرؤساء فى المحاريب السرية ، وأول هذه المراسم صلاة القبول — التطهير — أو هى صلاة البعث التى يتقدم إليها المريد كأنه ميت بالروح يطلب الحياة بالروح أو يطلب الخلاص من إرهاق الجسد وخبائث الشهوات ، ويعتبر بعدها من الواصلين إلى حظيرة الرضوان .

وكان لتفسير هذه الرموز أثر فى تفسير فيلون لرموز الديانة الإسرائيلية ، فتجاوز النصوص والمراسم إلى ما وراءها من الدلالات الروحية كما تكشفت له على أضواء الفلسفة اليونانية ، ووصل من ثم إلى الإيمان بالعقل الإلهى أو الكلمة Logos كأنها « ذات » لها صفات الذات الإلهية .

بل وُجد من وعاظ بنى إسرائيل أنفسهم قبيل عصر المسيح من مزج الأقاويل اليونانية بالعقيدة الإسرائيلية . فكان أصحاب الرؤى فى كتب أخنوخ يعلمون تلاميذهم أن الحكمة خلقت الإنسان من سبعة عناصر ، فخلقت اللحم من التراب والدم من الندى والبصر من نور الشمس والعظام من الحجارة والذكاء من السحب والملائكة ، والعروق من العشب والروح من أنفاس الله ، وأن خلق الأرواح سابق لخلق الدنيا بأرضها وسمائها ، لأنها عنصر خالد لا يزول .

* * *

فى هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح صلوات الله عليه .

وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبل « العمادة » من يديه . فلما قتل يوحنا لم يرهبه مصرعه الأليم ، ونهض بأمانة الدعوة بعده فى بلاد الجليل ثم فى بيت المقدس ، وفى الهيكل الأكبر معقل الأحبار والكهان وعاصمة « الدولة الدينية » فى بنى إسرائيل .

وكانت بشارته أعظم فتح فى عالم الروح . لأنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى الحقائق الأبدية ، أو نقلتها من عالم الحس إلى عالم الضمير .

فلم ينتظر ملكوت الله فى حادث من الحوادث الدنيوية الكبرى أو الصغرى . بل علم الناس أن ملكوت الله قائم فى ضمائرهم وموجود فى كل حقبة وكل مكان :

« ولا يأتى على موعد مرتقب . ولا يقولون هو ذا هنا أو هو ذا هناك . لأن ملكوت الله فيكم » .

ولم يشهد التاريخ قبل السيد المسيح رسولاً رفع الضمير الإنسانى كما رفعه ، ورد إليه العقيدة كلها كما ردها إليه .

فقد جعله كفؤاً للعالم بأسره بل يزيد عليه . لأن من ربح العالم وفقد ضميره فهو مغبون فى هذه الصفة الخاسرة . « وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ؟ »

والطهر كل الطهر فى نقاء الضمير . فمناط الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه : « فليس شىء من خارج الإنسان يدنسه . بل ما يخرج من الإنسان هو الذى يدنس الإنسان » .

وهناك حياته وبقاؤه : « فليس حياته من أمواله . . » .

وهناك قوامه وطعامه : « فليس بالخبز وحده يحيا . . . بل بكل كلمة من كلمات الله . . . » . . . و « الحياة أفضل من الطعام » .

وكان ينعى على القراء والعاكفين على التلاوات ومراسم العبادة فرطَ الولع بظواهر الأفعال دون حقائق الإيمان ، ويقول لهم : « نقوا الكأس من داخلها » فظاهرها لا يضير ما فيها .

وكان ينكر كل ما يراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان . فلا إحسان عنده لمن يتراءى بالإحسان ، لأنه تاجر أخذ ربحه فلا حق له عند الله : « احترزوا من صدقة تصنعونها أمام الناس . وإلا فلا أجر لكم عند أبيكم الذى فى السموات . وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعل المراءون تفاخراً بين الناس . فالحق أقول لكم قد استوفوا أجرهم . . . فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك . . . فأبوك الذى يراك فى الخفاء يجزيك فى العلانية » .

وكل شىء فى عالم الحس ينقاد لقوة الضمير : « فلو كان لكم إيمان كحبة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها وتنغرس فى ماء البحر فتطيع ».

وعلى تبشيره بالرحمة والمحبة لم يكن ينكص عن الثورة فى عالم الروح . لأنها

هى الثورة التى تستحق أن تثار : « جئت لألقى ناراً، فماذا علىّ لو اضطرمت النار ؟ »

فجانب الضمير هو الجانب الذى توجهت إليه رسالة السيد المسيح . ورعاية الله لروح الإنسان هى الملاذ الذى رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه .

وكانوا يؤمنون بالله الخالق وبالله الذى ينزل عليهم الشرائع ويحاسبهم على الطاعة والعصيان ، ولكنهم نسوا رعاية الله ولم يريدوا أن يحبوه كما أرادوا أن يطيعوه. فعلمهم أن الله محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله ، ومنهم المطرودون والعصاة ، ولا يستحق غفرانه من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه : « . . . إن أخطأ إليك أخوك فوبخه ، وإن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ إليك سبعاً فى اليوم وتاب إليك سبعاً فى اليوم ، فاقبل توبته واغفر له » .

وقد وجد عند بنى إسرائيل كفايةً وفوق الكفاية من كلامهم عن إله الشرائع وإله الخلق وإله هذا الشعب من الشعوب دون سائر بنى الإنسان . فذكرهم بالله الذى يرعاهم فوق رعاية الأب الرحيم ، وعليهم أن يثقوا به فوق الثقة بسعيهم فى طلب المال والحيلة فى تحصيل المعاش : « أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس ؟ انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن ، وأبوكم السماوى يقوتها . . . ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها ؟ من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ . . . تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى كل مجده لم يلبس كواحدة منها ، فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله ذلك اللباس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان ؟ ! » .

وعلى هذا الوجه ينبغى أن يفهم قول السيد المسيح حين قال : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » وحين جاءوه بالزانية فقال لهم : « من لم يخطئ منكم فليرمها بحجر » . فإنه لم يأت بإلغاء الشريعة ولا بإسقاط الجزاء . ولكنه نقل الإيمان بالله من الحرف إلى المعنى ، ومن القشور إلى اللباب ، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذى لا رقابة عليه لغير الضمير . ورأى عند اليهود ما هو

حسبهم من شرائع الأنبياء وشرائع الرومان فقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وذكرهم بجانب الرحمة والإحسان وقد نسوه ، ولم يذكروا غير جانب الغضب والقصاص .

* * *

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل فكان إذا تكلم عن نفسه قال : « أنا ابن الإنسان » أو « أنا نور العالم » أو « أنا خبز الحياة » أو « أنا الطريق والحق والحياة » أو « أنا القيامة والحياة » أو « أنا الراعى الصالح ، وأنا المعلم والسيد » أو « أنا الكرمة الحقيقية . . . » ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الحوارى بطرس حين سماه به ، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح .

ولم تكتب هذه الأناجيل فى عصر السيد المسيح بل بعد عصره بجيلين ، ولكن مواضع الاتفاق فيها تدل على رسالة واحدة صدرت من وحى واحد ، ويؤكد لنا وحدة هذه الرسالة أن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى فى ديانات ذلك العصر الكتابية أو غير الكتابية . فقد كانت هناك ديانات طافحة بالشعائر الخفية والمراسم التقليدية ، وكانت هناك ديانات تفهم العلاقة بين الله والإنسان كأنها ضرب من علاقة الحاكم بالمحكوم أو الصانع بالمصنوع أو العلة بالمعلول ، ولكن الفكرة المسيحية التى قررتها الأقوال المتفقة فى الأناجيل تتميز كل التميز عن مجمل الأفكار الإسرائيلية أو الأفكار الهندية والمجوسية أو أفكار المؤمنين بعقائد الفلسفة أو العقائد السرية . فالعلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها ، بين المكفول وكافله ، وبين الرعية وراعيها ، ولم تتفق هذه الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية ، وهى فى رأينا علامة جوهرية لا تقل فى قوتها عن أسانيد التاريخ التى تبطل شكوك المترددين فى وجود السيد المسيح .

وإنما طرأت الشبهة على أذهان أولئك المترددين من تماثل بعض الشعائر على النحو الذى أجملناه فى نقدنا لكتاب إميل لدفج عن السيد المسيح حيث نقول :

« إن الذى يرددونه أكثر من سواه أن كل شعيرة فى المسيحية قد كانت معروفة فى ديانات كثيرة سبقتها، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصليب . . . فاليوم الخامس والعشرون من شهر ديسمبر الذى يُحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس فى العبادة المثرية . إذ كان الأقدمون يخطئون فى الحساب الفلكى إلى عهد جوليان ، فيعتبرون هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسى بدلاً من اليوم الحادى والعشرين فى الحساب الحديث ، وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على اختيار اليوم الخامس والعشرين لهذا السبب وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس من شهر يناير الذى « تعمد » فيه السيد المسيح . على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله ديونيسيس عند اليونان وبعض سكان آسيا الصغرى ، وكان قبل ذلك عيد أوزيريس عند المصريين ، ولا يزال متخلفاً فى العادات المصرية إلى اليوم . ففى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة — وكان يوافق السادس من شهر يناير فى التاريخ القديم — كان المصريون يحتفلون بعيد إلههم القديم ولا يزالون يحتفلون به فى عصرنا هذا باسم عيد الغطاس . وقد اتخذت المسيحية اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس تذكاراً لآلام السيد المسيح قبل الصلب . وهذا هو الموعد نفسه الذى اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكار آلام الإله أتيس إله الرعاة المولود من نانا العذراء بغير ملامسة بشرية ، والذى جب نفسه فى هذا الموعد ونزف دمه فى حذور شجرة الصنوبر المقدسة .

« وقد كان اسم العذراء مريم بصيغه المختلفة اسماً مختاراً لأمهات كثير من الآلهة والقدسين مثل أدونيس بن ميرة وهرمز بن مايا وفيروش بن مريانا وموسى ابن مريم وبوذا بن مايا وكرشنا بن مارتالا ، وهكذا بحيث يظن أن هذا الاسم شائع لا يدل على ذات معينة .

« ومما يجرى فى هذا المجرى أن تماثيل إيزيس وهى تحمل ابنها حوريس كانت رمزاً فى الكنائس الأولى للعذراء مريم وابنها المسيح . ولما كانت إيزيس إلهة البحر وكان اسمها عند الرومان كوكب البحر أى ستيلا ماريس Stella Marris فليس يبعد أن يكون لهذا الشبه علاقة بالتشابه فى الأسماء . وقد رويت روايات

كثيرة عن الآلهة والأبطال المولودين من الأمهات العذراوات قبل المسيح . فكان بعض الفرس يعتقدون أن زرادشت ولد من أم عذراء ، وكذلك كل الرومان يعتقدون فى أتيس، والمصريون يعتقدون فى رع ، والصينيون يعتقدون فى فوهى ولاو . وقال فلوطرخس فى رسالته عن إيزيس وأوزيريس إن الحمل يحصل فى هذه الأحوال من الأذن وهو ما يفسر صورة العذراء فى القرون الوسطى . إذ كانوا يرسمونها وشعاع من النور يتجه إلى إحدى أذنيها. وقال ترتوليان إن شعاعاً سماوياً هبط على العذراء فحملت بالسيد المسيح . أما التكفير بالموت فكثير فى قصص الديانات القديمة ، وأقربه إلى مواطن المسيحية عبادة تموز الذى كانوا يحتفلون بموته وبعثه فى أنطاكية ، وسرت عادة البكاء عليه إلى النساء اليهوديات فكن يندبنه على باب الهيكل، وأنبهن على ذلك النبي حزقيال . . . وجاء فى التلمود أن رجلا يسمى يسوع قتل وعلق على شجرة قبل الميلاد بمائة سنة .

« والعشاء الربانى كان معروفاً فى عبادة مترا على الطريقة التى عرف بها فى المسيحية ، بل كان الخبز الذى يتناوله عباد مترا فى ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب . . . وقد أسف جوستن مارتر فى سنة ١٤٠ لهذه المشابهة وعدها مكيدة شيطانية لتضليل المؤمنين .

« والمعجزة الأولى للمسيح وهى تحويل الماء خمراً معروفة فى عبادة ديونيسيس إله الخمر وإله الشمس . ومن حيواناته المقدسة الحمل والحمار ، وعلى الحمار كان ركوبه حتى قيل إنه كان له حماران فجعلهما نجمين فى السماء . وبهذا الرمز يرمز البابليون إلى مدار السرطان . . . فالخلط بين المسيح وديونيسيس فى ركوب الأتان وتحويل الماء موضع نظر . ومثله الخلط بينهما فى المذود الذى وضعا فيه عند الولادة كما جاء فى إنجيل لوقا حيث قال : وفى تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة . وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سورية فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينته الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة

وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته فى المذود . إذ لم يكن لها موضع فى المنزل . أما الإحصاء فى هذا التاريخ فلم يرد له أى ذكر فى تراجم أوغسطس ولم تجر العادة قط فى دولة الرومان أن يكلف الناس السفر من بلادهم إلى البلاد التى عاش فيها أجدادهم الأسبقون ليكتبوا أسماءهم هناك . فالرواية مستهدفة للملاحظة من عدة جهات .

« ولم يُتفق على المكان الذى ولد فيه المسيح كما لم يتفق على الزمان الذى ولد فيه . فمن قائل إنه ولد فى الناصرة ، ومن قائل إنه ولد فى بيت لحم . والذين يقولون إنه ولد فى بيت لحم يذهبون إلى هذا القول لتأييد النبوءة التى تنبئ بظهور المسيح من نسل داود : وهو بيت لحم لا فى الناصرة . وجاء فى إنجيل متى أن يوسف النجار رأى فى المنام أن هيرود الطاغية سيقتل كل طفل يولد فى بيت لحم لذلك العام . مع أن هيرود مات فى السنة الرابعة قبل الميلاد ، ومع أن يوسفيوس المؤرخ لم يذكر خبر هذه المذبحة فيما أحصاه لهيرود من الآثام . وقد سبقت روايات كهذه عن النمروذ وفرعون مصر وغيرهما من الأمراء الذين أنذرتهم النبوءات بظهور أعدائهم قبل مولدهم . فهى روايات لا تدل على شىء يعتمد على التاريخ ولم تكتب هى ولا كتب غيرها مما ورد فى الأناجيل إلا بعد عهد المسيح بعشرات السنين . أما الذين عاصروه أو قاربوه غير التلاميذ فلم يذكروا عنه شيئاً ولم يدونوا خبراً . . حتى عجب فوتيوس بطريق القسطنطينية حين قرأ فى القرن التاسع تاريخ جستس الطبرى المكتوب بعد المسيح ببضع سنوات فوجده غفلا من ذكره ، وهو مولود حيث ولد المسيح فى الجليل . . ولم يشر بلينى الأكبر بكلمة واحدة إلى الخوارق التى نسبت إليه ، وهو كثير العناية بجمع الخوارق فى تاريخه الطبيعى المؤلف بعد المسيح بثلاثين أو أربعين سنة . وثبت أن النسخ الصحيحة من تاريخ يوسفيوس المنتهى بالسنة الثالثة والتسعين بعد الميلاد خلو من الفقرتين المشار فيهما إلى المسيح على عجل واقتضاب . وأن هاتين الفقرتين مدسوستان على بعض النسخ فى القرون الوسطى ، ويقال مثل ذلك فى كتب أخرى وردت فيها مثل هذه الإشارات المبهمة بصيغة لا تثبت على المضاهاة والتمحيص » .

وقد جمعنا فيما تقدم جميع الملاحظات التى أوردها المتشككون فى وجود السيد المسيح ، وهى جديرة بالتمحيص لأنها وثيقة الصلة بأسانيد المقارنة بين الأديان ، ويتوقف على تقرير قيمتها تقويم الكثرة الغالبة من تلك المقارنات.

وأول ما نرى أن أصحاب هذه الملاحظات قد نسوه وأغفلوه ولم يقدروا قيمته لأن السيد المسيح هو صاحب الدين الذى كان أكثر الأديان نعياً على ظواهر المراسم والشعائر والنصوص . فمن الغريب أن يجعلوا تشابه المراسم والشعائر والنصوص مبطلا لوجود من أنكرها وأقام دعوته الكبرى على إنكارها .

وأغرب من هذا أن يتخذوا تشابه المراسم والأخبار دليلا على تلفيق تاريخ السيد المسيح . . مع أن التواريخ جميعاً حافلة بأسماء الأبطال المحققين الذين نسب إليهم كل عمل من نوع أعمالهم وكل خليقة من نوع خلائقهم . فإذا اشتهروا بالشجاعة رويت عنهم كل أخبار الشجعان ما ثبت منها وما لم يثبت منها إلا لغيرهم ، وإذا اشتهروا بالفكاهة نسبت إليهم فكاهات المعروفين والمجهولين ولا تزال تنسب إليهم على مر السنين ، وهكذا يصنع الرواة بأخبار كل مشهور سواء كانت شهرته بالمحمود أو بالمذموم من الصفات .

فإذا اختلطت الروايات فى أخبار المسيح فليس فى هذا الاختلاط بدع ولا دليل قاطع على الإنكار . وقد قلنا فى تعليقنا على تلك الملاحظات إنه « لو كان اختلاط الرموز والشعائر من موجبات الشك فى ظهور الرسل لوجب أن نشك فى وجود النبى عليه السلام لما فى الإسلام من شعائر الحج التى أحياها على سنن العرب قبله ، ولوجب أن نشك فى وجود على بن أبى طالب لما أحاط به من أساطير بعض المذاهب الغالية . . وفى مقدمتها انتظار الإمام أو المهدى أو المسيح. وهى عقيدة تتشابه فيها تلك المذاهب المسيحية والإسرائيلية ووثنية المجوس » .

ومما فات أصحاب الملاحظات المتقدمة أن آباء الكنائس الأولى لم يحتفلوا بتلك الأعياد وهم يجهلون تواريخها . ولكنهم بدأوا بالاحتفال بها لاعتبارهم أن إكرام السيد المسيح فيها أجدر بالمسيحيين من إكرام الشمس والكواكب وسائر الأرباب الوثنية . . وكانوا يرون أتباع الكنيسة يندفعون إلى محافل الوثنيين فى تلك الأيام

فيصرفونهم عنها بإحياء المحافل التى تقابلها وتمجيد السيد المسيح فيها بديلا من تمجيد الأوثان . وعلى هذه السنة خصصوا يوم الأحد للعبادة لأنه كان يوم الشمس فى ديانة عبادها الأقدمين . واسم هذا اليوم بالإنجليزية Sunday يدل على بقايا ذلك الدين المهجور .

وأقطع من هذا فى استضعاف تلك الملاحظات — أن روح المسيحية فى إدراك فكرة الله — هى روح متناسقة تشف عن جوهر واحد لا يشبهه إدراك فكرة الله فى عبادة من تلك العبادات .

فالإيمان بالله على تلك الصفة فتح جديد لرسالة السيد المسيح لم يسبقه إليها فى اجتماع مقوماتها رسول من الكتابيين ولا غير الكتابيين ، ولم تكن أجزاء مقتبسة من هنا وهناك . بل كانت كلا متجانساً من وحى واحد وطبيعة واحدة ، وإن وجدت هذه الأجزاء متفرقة هنا وهناك قبل ذاك .